السرد العربي و نظريات السرد الحديثة:
قراءة في التجربة النقدية لسعيد يقطين

الأستاذ: عامر منصور نور الدين
باحث من جامعة سيدي بلعباس

راهن الدراسات السردية العربية:

ارتبطت محاولة التأسيس لتصورات سردية عربية، مع ذلك الميل الواضح إلى البحث عن آليات إجرائية بديلة، تتكفل بإخراج السرد العربي المعاصر، من أسر القراءات السياقية، وكان لا بد من الاستناد إلى المقولات النقدية للمنجز الغربي المعاصر، التي تعلن إعلانا صريحا ضرورة إحداث قطيعة مع التصورات السياقية التي غالبا ما ترتبط بالتحليل بمجالات لا تعد من صميم القراءة العلمية، التي لا يقترن التحليل عندها إلا بما هو قابل للمعاينة العلمية. وقد استند النقد العربي على تلك التصورات المعاصرة، إما بفعل الترجمة، وإما بالإطلاع المباشر على منجزات السرديات بشقيها البنيوي والشكلي مباشرة من مصادرها الأصلية، وهنا قد تتباين منطلقات التفكير ومرجعيات الباحثين حسب تميز النظريات نفسها عن بعضه البعض، وحسب اللغة التي يتقنها الباحثون العرب، من حيث إن المشرف العربي يعتمد التوجيهات الأنجلوساكسونية، بينما المغرب العربي وفاء منقطع النظير للدراسات الفرانكفونية. مما أدي على تباين في المفاهيم والرؤى وحتى في الطموحات. حسب مرجعية كل بحث.

يبدو ذلك الاختلاف ماثلا. من خلال عدم الاستقرار على منطلقات المنجز الغربي دائما، إذا أن بعض الدراسات تكاد لا تقتنع بجدوى الاستناد على تلك المنجزات، بحجة خصوصية النصوص السردية تارة، وبعدم الاقتناع على تقديم قراءة عميقة للسرديات العربية بالاعتماد على ما أنجزته الدراسة الغربية تارة أخرى، ويرى محسن جاسم الموسوي، أن إقحام آليات القراءة الغربية في غير مواضعها، وعدم الإحاطة العميقة بها أو تجاهل ما تتموضع السرديات العربية من أنساق لسانية وأخرى ثقافية واجتماعية. غالبا ما يقود إلى بعثرة في المجهود المبذول واهتزازات في النوايا وارتباك في العلاقات بالمقروء. إذ لا يكفي كثرة العكازات والشواهد والإحالات على باختين وبروب أو على الشكلانيين الروس والنقاد الجدد أو على البنيوية الغربية وما بعدها للإتيان بقراءة علمية للسرديات[1]. وتبدو الحجج التي يسوقها محسن جاسم الموسوي لتبرير الطرح الرافض للمنجز الغربي مبررة؛ حيث أنه من الضروري، قبل التعامل مع النص "توطين الذات القارئة داخل الجهاز المعرفي وآلياته، لتأتي القراءة غنية ومتناغمة. وعندها يغيب ذلك ويجري استنطاق النص مرغما ويستعان له بعكازات من هنا وهناك، تصبح القراءة تمرينا مدرسيا مبتدئا. لا يعني كثيرا في ميدان يستدعي الحذر من جانب وتدفق الاستجابة المنظمة من جانب آخر."[2]

غير أن تلك الإشكالات؛ لا تعد مبررا مقنعا وكافيا لصرف النظر عن ما أنتجته الحضارة الغربية المعاصرة، فالصعوبات المذكورة سابقا، هي مشكلات النقاد أنفسهم، كونهم لا يقدمون تلك النظريات مصحوبة بالسياقات الثقافية التي أنتجتها. لذا كثيرا ما يلجأ نقادنا على الاكتفاء بتقديم وترجمة المفاهيم الجاهزة، ثم البحث في النصوص عما يوافقها. وبالتالي تتحول القراءة إلى ممارسة آلية وتمرين مدرسي. والواقع أن النظريات الغربية اتخذت النص منطلقا لبناء النظرية، وليس العكس. وهو سر تفرد دراساتهم وأبحاثهم. حيث عمدوا "الفصل بين مكونات النص، والنظرية باعتبارها تصورا خاصا بالمعنى. فما يعود إلى المعطيات الأولى يشكل مبادئ كونية هامة نكاد نعثر عليها في كل الآداب الإنسانية (مكونات النص السردي أو النص الشعري أو أشكال التعبيرية أخرى). أما المعطيات

الثانية فلا تشكل سوى فرضيات للقراءة يمكن من خلالها التسلل إلى النصوص والتعرف على دلالاتها."[3] وفق الطريقة المتبعة في التحليل؛ أو من خلال زاوية النظر التي يتخذها المحلل للولوج على العوالم الدلالية للنصوص الأدبية.

تأتي بعض الأعمال التحليلية الغربية متجاوزة لبعض المفاهيم النظرية التي تحتويها، من حيث أن بعض آلياتها تستعص على بعض النصوص أثناء التحليل، لذلك يلجأ أصحابها إلى اقتراح مفاهيم وآليات بديلة، خاصة في مجال دراسة المعني (السيميائيات)؛ حيث اقتنعوا أن "المعنى لا يوجد في النموذج النظري، فالنموذج تصنيف يعتمد التجريد، ولا يستوقفه سوى العام، في حين يشكل النص واقعة مخصوصة مختلفة بالضرورة عن كل الوقائع الأخرى، تماما كما هي التجربة الفردية، إنها فريدة ولا يمكن استنساخها في تجربة أخرى."[4]والمثال البارز الذي يمكن الاستشهاد به في هذا الموضع، هو تلك القراءة السيميائية التي اقترحها (أ.ج غريماس)، للقصة القصيرة "الصديقان" **les deux amis**، حيث لم يلهث وراء التقسيمات العاملية (الفاعل وموضوع رغبته)؛ كما يفعل بعض النقاد العرب، وإنما قدم مقاربة سيميائية بناء على ما يتيحه النص المدروس من إمكانات تثير المحلل، حيث استهل مقاربته بنموذج تحليلي يتوافق مع الحالة البدائية **I'état initiale**، التي تستهل بها القصة، والتي نجد السارد (**narrateur**) يصف فيها مدينة باريس أثناء الحرب: "كانت باريس مغلقة..... **Paris était bloque**[5]؛ حيث يجعل فضاء **Espace** مدينة باريس كمنطقة لتلك المقاربات من خلال إفراده عنوانا يحيل على تفكيك الدلالات المعبرة عن فضاء المدينة، بعد أن أقدم على "تنظيم النص" وتقطيعه إلى نظام من المقطوعات **Séquences** وكانت المقطوعة الأولى معنونة ب"باريس"[6]. كون السارد استهل بها قصة قصيرة، بخلاف ما هو مثبت في أعمال بعض النقاد العرب، إذ يرتبط التحليل عندهم غالبا –بالجري وراء الفاعل وموضوع الرغبة ومن ثم تحديد النماذج العاملية، مهما كانت نوعية النصوص واختلاف مضامينها.

إن التهم والتقديحات التي يوجهها البعض إلى الأطروحات الغربية المعاصرة، بحجة آلياتها وعموميتها، وعدم مقدرتها على التعامل مع الخصوصيات الثقافية للمجتمعات التي أنتجت ضمنها النصوص لهو افتراء وجهل بتلك النظريات نفسها، ولا يعد من صميم الروح العلمية المتجددة باستمرار جدة النصوص نفسها التي نتناولها بالتحليل. إن المكونات التحليلية التي تقترحها النظريات الغربية هي مكونات "هامة من السهل التعرف عليها، لأنها عناصر موجودة في النوع وليست مميزة على مستوى النسخة. لقد كان مصدر الاختلافات، في الأصل والامتداد، هو التصور النظري الذي يملكه الباحث من المعنى، وعن طرق الكشف عنه وطريقة التعامل معه، وعن موقع الذات القارئة منه.[7]" وموقع المحلل من النظرية نفسها، وهو يبرز إمكانياتها التحليلية أمام النص. وما يقترحه من إضافات لتلك النظرية بالاستناد على البنى الدلالية الموجودة في النص نفسه.

وعلى الرغم من ذلك، فقد اتخذ بعض الدارسين العرب، موقف المرحب للمنجز الغربي في مجال السردي من خلال الاقتناع بأن التأسيس لتصورات عربية في قراءة المحكيات العربية لا يتم إلا بعرض مفاهيم السرديات الغربية، ومن ثم محاولة تعديلها وتحويرها وفق متطلبات النصوص السردية العربية، وقد مثل لهذا الطرح نخبة من النقاد العرب. تحملوا مسؤولية نقل مفاهيم السرديات الغربية إلى الثقافة النقدية العربية. ويأتي في مقدمة أولئك الباحثين الباحث العربي المغربي سعيد يقطين.

سعيد يقطين والسرد العربي:

يدرج الباحث الجزائري مصطفي منصوري أعمال سعيد يقطين ضمن الاستثمار الواعي[8]. للمنجز الغربي وخاصة سرديات جيرار جينات(**Gérard Genette**) ويبدو ذلك الحكم مبررا بالنسبة لباحث؛ يشغل جل أبحاثه لعرض المفاهيم النظرية الغربية، مع محاولة محاورتها وتعديلها ما أمكنه ذلك من خلال السعي إلى إبراز الخصوصيات

الثقافية للنصوص العربية المحللة، ولذلك عد سعيد يقطين من أبرز الأعلام المغاربة المشتغلين على السرد بحكم الاختصاص الذي يوليه مرتبة الناقد، حيث نشر أعمالا عديدة تصب في مجرى واحد، فمن تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير) الذي صدر سنة **1989**. إلى انفتاح النص الروائي من السنة نفسها، ومن الرواية والتراث السردي (من أجل جديد للتراث) سنة **1992**، إلى ذخيرة العجائب العربية، (سيف بن ذي يزن) سنة **1994**، ومن الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي) على قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية) سنة **1997**.

تكونت تصورت السرديات الغربية والعربية، لدى سعيد يقطين من خلال خلفيات ومقاصد تشكلت لديه في منتصف السبعينيات من خلال متابعاته لمختلف الكتابات النقدية العربية، وقراءاته المتعددة للأدبيات الأجنبية في مضمار الدراسات الأدبية والعلوم الإنسانية وهي التي قادته في مختلف كتاباته إلى صياغة مجموعة من القضايا، ومحاولة التطور في الجواب عنها من خلال كل أعماله، والعمل على التقدم وبلورتها على النحو الأمثل[9]. وتتشكل خلفيات ذلك التصور وفق مايلي:

1.الخلفية الأولى: الطبيعة والوظيفة:

– عدم المقدرة على التفكير والإنتاج المعرفي خارج السياق الثقافي العام.

– يسلم الإبداع والتفكير الأدبي العربيين بجدلية الشكل والمضمون في النقاشات الشفوية.

– يقر بأن الثقافة النقدية العربية، تستبق إلى التفسير وإلى الحكم وإلى التأويل لكنها تبقي عاجزة عن الفهم.

– الإيمان؛ على الصعيد الأدبي، بضرورة الانطلاق أولا مما يميز الأدب عن غيره من الخطابات، وما يميّز الخطاب الأدبي نجده في طبيعته وليس في وظيفته.

– ضرورة فهم الطبيعة، والتركيز عليها في قراءة النص الأدبي، وأنّ ننتقل من "قراءة" الكاتب إلى "قراءة النص"، وهذا ما حاول دراسته –حسب قوله– في "تحليل الخطاب الروائي"، و"انفتاح النص الروائي"؛ حيث جعل الأوّل مكرّسا لتحليل تقنيات الرواية بالتركيز على بنياتها، وفي الثاني انطلق إلى معالجة دلالة الرواية العربية بعد التعديل والتحوير في ضوء ما توصّل إليه من خلاصات في تحليل تلك البنيات[10]، وبالتالي تشكّلت الخلفية الأولى، مع ملاحظة اهتمامه بالبنيوية، وبتجاربها الغنية والمتنوعة.

2. الخلفية الثانية: من هو الناقد الأدبي؟

– إنّه سؤال مفروض بإلحاح في سياق الذي رصده في الخلفية الأولى.

– يحدّد سعيد يقطين علاقة الناقد بالنص الأدبي علاقة مثقف سياسي بالدرجة الأولى وبالتالي فإنّ ما يقوله السياسي في النص الأدبي يقابل ما يقال في التحليل السياسي بوجه عام.

– عدّ الخطاب النقدي الأدبي واجهة للنضال أكثر مما هو خطاب يدرسه من حيث هو أوّل، بأدوات وتصوّرات خاصة لمراكمة معرفة فنية وجمالية[11].

تقود تلك الخلفيات الثلاثة إلى اتخاذ مواقف معيّنة من الممارسة النقدية العربية؛ حيث حدّدت له أفقا مغاير للعمل كما أمكنه ذلك، من خلال تجسيد المقاصد التي كانت حاضرة في وعيه واشتغاله بالنص الأدبي العربي، وكان كثيرا ما يشير إليها في جلّ كتاباته إشارة واضحة أو ضمنية وتتجلى تلك المقاصد فيما يلي:

المقصد الأول: الشكل الأدبي:

– يبرز اهتمامه بالشكل الأدبي من خلال مايلي:

- متابعة المجهودات النقدية الغربية الجديدة المختلفة، وكان يتعامل معها بكثير من التأمّل والتدقيق.
- التمييز بين مختلف الاجتهادات، من خلال رصد مميّزات كل اتجاه وما يختلف به عن غيره.
- الاشتغال على أعمال جيرار جينيت وتودوروف باعتبار أنّ علمهما يعدّ امتدادا لعمل الشكلانيين الروس كون أنّ أعمالهم تنصبّ على "الشكل" أو "الخطاب".
- عدم الاشتغال على الدلالة عند السيميائيين، كونها لم تكن تعنيه وقتها.
- ضرورة الفهم قبل التفسير، مع الإشارة إلى أنّ الفهم لابدّ أن يتأسّس على قاعدة الانطلاق من النص وليس من معرفتنا العامة والجاهزة عنه.
- الانتقال من الدراسة الشكلية إلى الدراسة الوظيفية والدلالية، بعد التراكمات المحققة أثناء اشتغاله على الشكل، مع تطوير الأبحاث بشكل حثيث[12].

المقصد الثاني: التخصص العلمي:

لاشك أنّ سعيد يقطين على وعي تام، بانّ مسألة التخصص العلمي ضرورية لتحديد مجال الدراسة الأدبية؛ يبرز ذلك من خلال تركيزه (في أعماله الأولى) الاشتغال على الخطاب **Discours** الأدبي، فقد اختار مجال السرديات، بوصفها علما يعني بالدراسة السردية، وتمّ ذلك لوعيه التام "بأنّ السّرد يحتلّ مركزا مهماّ في تراثنا، وأنّه لم يتمّ التعامل معه لهيمنة الشعر في تقاليدنا"[13].

لذلك فقد كرّس أبحاثه لدراسة السّرد العربي، قديمه وحديثه، وفق مناهج واتجاهات معروفة، يخضع تحديدها إلى طبيعة النصوص العربية المعروضة للتحليل، ففي دراسته الأولى انحاز إلى سرديات جيرار جينيت وتودوروف، لأنّ تصوّرهما تتماشى وطبيعة الخطاب السردي المعقّد، وعندما تبلورت له رؤى توجيه النظر إلى التراث السردي العربي ... التوجّه صوب سيميائيات غريماس، وبالضبط في مؤلفات: قال الرّاوي، وبذلك فهو يختار الأنموذج الغربي الأمثل للدراسة السردية عندما يتعلّق الأمر بالسّرد العربي قديمه وحديثه.

وفق هذا التصوّر، فإن سعيد يقطين يؤمن بانّ "التخصّص العلمي المحدّد في معالجة النص الأدبي هو المدخل الملائم لتشكيل فكر أدبي عربي، وبدون الاختصاص لا يمكننا الحديث عن المشتغل بالأدب إلا تجاوزا... وفي المجال اللّذي تخصّصت فيه السرد عموما، أجد أنّ هذا التخصّص يمكّنني من التطوّر في مراكمة الأجوبة عن الإشكالات التي أطرح، ولو كنت أشتغل بالشعر، والدراما... لكان مجال كتاباتي مختلفا عمّا هي عليه الآن"، لأجل ذلك كان سعيد يقطين يؤمن بأنّ التأسيس لـــ "سرديات عربية" لا يتمّ إلا وفق الإستناد على ما أنجز هنا وهناك في مجال تحليل المعطّى، لكن دونما اجترار وتكرار للمفاهيم وإنما بالتحوير والتعديل مراعاة للخصوصية الثقافية والسياقية للسرد العربي، وهو ما يسمّيه سعيد يقطين بـــ "التفاعل الإيجابي".

المقصد الثالث: التفاعل الإيجابي:

يؤمن الباحث أن لا سبيل لتطوير الأبحاث في مجال السرديات العربية، بقصر الجهود على نقل المنجزات السردية الغربية فقط، وإنما يتعلّق الأمر بضرورة الوعي لمقصد أخير، يتعلّق بما يسمّيه: التفاعل الإيجابي، حيث يتّصل هذا المقصد عنده "بضرورة تجاوز مرحلة الاستيعاب ونقلالنظريات الغربية كما يرتبط بتجاوز النظرة التقديسية للتراث، والتعامل معه بمرونة وحيوية إبداعية لتحقيق التفاعل بصورة إيجابية، وفتح المجال أمام إمكانية إنتاج المعرفة الأدبية، إنّ تحقيق هذا التفاعل وليد الرّغبة في تجاوز ثنائية: التراث –الغرب من جهة، وتجاوز الرّؤيات المسبقة والجاهزة للممارسة النقدية من جهة أخرى"[14]، وهو ما يمكّن من تجاوز الإنجازات المعرفية السّائدة، كما يساهم في إثراء المعرفة بالسّرد العربي قديمه وحديثه.

إنّ السّعي إلى تأسيس تصوّرات سردية خاصة، يمكننا في نظر الباحث "من استيعاب التصوّرات الموجودة بدقّة، وتمثلها وفق قواعدها وأصولها، ويدفعنا هذا إلى الاجتهاد في نطاقها، والعمل على تطويرها بالانطلاق ممّا يقدّمه لنا السّرد العربي، وبذلك يُمكّن الفكر السّردي العربي أن يتجاوز حدود التّأثّر الدائم والمتواصل دائما إلى الإسهام والتأثير، وينقلنا من وضع الاستقبال إلى الإنتاج"[15]، وهو مطمح بعيد المنال كون أنّنا "لا نزال نتناقش هل من الضّروري أن نستفيد من النّظريات الغربية أو أن علينا أن نقدّم نظرية سردية عربية؟ ومن أين لنا أن نقدّم نظرية أو علما سرديا عربيا ونحن لا نؤمن بالنظري ولا بالعلمي؟!... ومن أين لنا بتأسيس كلّ ذلك إذا لم نتفاعل مع النظريات التي سبقتنا في هذا المجال أو ذاك"[16]. ولذلك ما فتئ سعيد يقطين يدعو في كلّ مرّة إلى ضرورة الاستغاثة بالتصوّرات الغربية لتأسيس "سرديات عربية" "تستثمر المنجز الغربي، دون أن تتبرّأ من تراثها الفكري والثقافي، وتعمل على جعل السرديات البنوية طيّعة، تستجيب للمعطى العربي، اللذي رهن مشروعه بالحاجة إلى امتلاك جهاز مفاهيمي خاص به، إذ الإجابة على بعض الأسئلة التي يثيرها الخطاب الرّوائي العربي، متوقّف إلى حدّ بعيد على قدرة النقد العربي على تجديد أدواته باستمرار، وعلى تجاوز مرحلة التّرديد، دون وعي بالخلفيات والأطر، وعلى جعل النقد العربي مواكبا لكلّ المنجزات، بغض النظر عن مصادرها، فإخضاعها للتجريب كفيل باختيار درجة فاعليتها"[17].

إنّ المتتبع للمسيرة العلمية لدى سعيد يقطين في كتاباته الأولى، أو المتأخّرة، سيلحظ دون شكّ أنّه لم يستقرّ على المفاهيم والآليات المقترحة من قبل السرديات الغربية، ففي كتابه (تحليل الرّوائي: الزمن، السرد، التبئير)، قام بمحاورة مفاهيم جينيت المثبتة في كتابه "خطاب المحكي"، كونه لم يستقر على التقسيم نفسه المتّبع في الكتاب، وإنّما قام باستبدال الصيغة بالسّرد، والصّوت بالتبئير[18]، تجاوزا للوقوع في الاجترار والتقليد من جهة، وتكييفا وتماشيا مع طبيعة النصوص السردية العربية موضوع التحليل من جهة أخرى بعد أن قدّ سعيد يقطين تصوّراته لتحليل الخطاب الرّوائي العربي، صرف اهتمامه شطر التّراث السردي العربي؛ حيث يعلن أنّ هذا التحوّل لم يكن اعتباطيا، وإنما أملته مجموع ظروف معيّنة، تتعلّق بما تشكّل، لديه من معطيات عن السّرد العربي القديم، وهو يحلّل نماذج عن الرّواية العربية؛ حيث لاحظ أنّ هذه الأخيرة تقيم علاقات حوار وتفاعل نصّي مع بعض الأشكال السردية القديمة؛ حيث "يتم تقديم نص سردي جديد (الرواية)، وإنتاج دلالة جديدة لها صلة بالزمن الجديد اللذي ظهر فيه النص"[19]، إذ يتم استكشاف أشكال الحوار أو التفاعل النّصي المحصّل، وقد استند سعيد يقطين في إبراز كيفية تعلّق أو تعالق النصوص على كتاب لجيرار جينيت يبحث في "المتعاليات النصية". وكان هذا البحث فاتحة توجّه جديد، سيمكّن يقطين من فتح آفاق جديدة لبحوث وإشتغالات تتعلّق أساسا بالتراث السردي العربي، ويبرز ذلك بجلاء من خلال تذييله عنوان كتابه بعنوان فرعي: "من أجل وعي جديد بالتراث".

– يحدّد سعيد يقطين أهداف تحليل من هذا النوع في إبراز أهمية البحث في التراث السردي العربي، وإظهار مدى "خصوصية المسألة التّراثية في فكرنا الحديث والمعاصر، ونقصد من وراء التفكير في علاقة الرّواية بالتراث أن نتساءل عن طبيعة هذه العلاقة ونوعيّتها، لنتاج لنا إمكانية الانتقال إلى ظاهرة أعمّ وهي علاقة الكاتب العربيّ بتراثه بناء على التصوّر المنطلق منه في معالجة الرواية وصلتها بالتّراث"[20]. في حين سنفرد بالتراث السّردي العربي في أبحاث لاحقة، برزت خصوصا في مؤلّفيه: (الكلام والخبر: مقدمة للسرد العربي) و(قال الرّاوي: البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، حاول من خلال لهما تجديد أدوات البحث والنّظر في التراث بغية تحيينه وعصرنته، استنطاق مكنوناته، بعيدا عن القراءات التاريخية والأيديولوجية التي ما فتئت ترتكز على البعد الواقعي لهذا النّص القديم.

– لم يكن التفات سعيد يقطين إلى التراث السردي العربي استعراض فكري، وإنّما كان نتيجة أنّ الالتفات إلى هذا النّص يُعمّق من فهم الإنسان العربي لتاريخه وذاكرته، لذلك فهو يرى أنّه لا يبالغ إذا ما حاول "التشديد على الأبعاد التمثيلية، في هذا النّص لمختلف ما يمكن الجسد العربي، ويترسّخ في الذاكرة العربية والوجدان العربي، ويحدّد

مختلف أنماط التخيّل والإدراك والسلوك لدى الإنسان العربي"[21]، كما أنّ معظم الأبحاث التي أنجزت حول مبحث التراث السردي العربي، اعتمدت على مقدمات جاهزة، وأطر غير ممنهجة ورائجة، لم تحلّل المعطى العربي بوصفه بنية دلالية لها ميزتها الشكلية والدلالية، بل نظر إليه نظرة تقديسية تمجيدية كونه يشير بصورة أو بأخرى إلى العصور الذهبية للحضارة العربية الإسلامية؛ "فعندما يقرأ القارئ العربي نصّا من نصوص تراثية، يقرأه متذكّرا لا مكتشفا ولا مستفهما"[22]، ومن هنا كان لابدّ من إعادة قراءة التراث السردي العربي وفق مناهج واتجاهات علمية، يكون هدفها بناء وعي جديد يتأسّس على تقديم معرفة جديدة، خاصة أنّ ما خلّفه العرب في هذا الميدان إرث ضخم يصعب حصر أنواعه.

– تحوّلت هذه القناعات لدى سعيد يقطين وغيره إلى التطلّع لدراسات حداثية يكون الباحث فيها ملزما إلى النضب من معين السرديات الغربية، لإناء تصوّرات دراسة سردية للتراث العربي، يكون فيها هذا الأخير معاصرا لنا عبر اقتراح مفاهيم وآليات معيّنة تضفي عليه نوعا من الفهم والمعقولية، بعيدا عن الأحكام الذاتية والنّظرات التقديسية التي أساءت إليه؛ ذلك لأنّ "إضفاء المعقولية على القروء من طرف القارئ معناه نقل المقروء إلى مجال اهتمام القارئ، الشيء اللذي قد يسمح بتوظيفه من طرق هذا الأخير في إغناء ذاته أو حتى في إعادة بناءها"[23]. لذلك كان لزاما الالتفات إلى ما أنجزه الغرب في مجال السرديات وتوطينها داخل النصوص السردية العربية باعتبار أنّ ما يشغلها قوامه الأساس النّص الأدبي، بصرف النّظر عن المعطيات الخارجية، كالكاتب والظروف المحيطة به.

– تتميّز السرديات الغربية المعاصرة بتنوعها وتشعّب اتجاهاتها، وإذا كانت فرعا معرفيا يتناول مكوّنات المحكي تحليلا، فإنها تقدّم اتجاهين رئيسيين في قراءة المحكي الاتجاه الأوّل: "المسمّى عادة السيميائيات السردية، يمثله بروب، بريمون، غريماس...إلخ، ويهتم بسردية **Narrativité** الحكاية دون اهتمام بالوسيلة الحاملة لها–رواية– فيلما أو رسوم– مادام نفس الحدث يمكن ترجمته بوسائل مختلفة"[24]، أمّا الاتجاه الثاني للسرديات "ليس موضوعه الحكاية، ولكن المحكي كصيغة للتمثيل اللّفظي للحكاية، وكما يقدّم نفسه مباشرة للتحليل، إنّه يدرس العلاقات بين المستويات الثلاث التالية: المحكي، الحكاية والسرد"[25]. لذلك وجب اختيار زاوية نظر ومعالجة للتحليل حتى تتوضّح الصلاحيات والحدود ما بين التوجّهات المختلفة، كون أنّ الاتجاهين لا يقدّمان المفاهيم وأدوات التحليل نفسهما، نظرا لتباين منطلقاتهما من جهة، وقابلية كل اتجاه الاشتغال على محكيات معيّنة من جهة أخرى، فالاتجاه الأوّل يميل إلى النصوص السردية الأقل تعقيدا، نظرا لسهولة إبرازها في نظام من مقاطع **Séquences** معيّنة، حيث البنية الدلالية لكل مقطع على حدة، كما أنّ هذا النوع من النصوص السردية لا يطرح إشكالات البنية الزمنية، بخلاف الاتجاه الثاني اللذي يضطلع بتحليل النصوص السردية الأكثر تعقيدا، كالرواية الجديدة على وجه الخصوص: إذ غالبا ما تنزع نحو تكسير النظام الكرونولوجي للأحداث **évènements**. حيث يكون تحليلها متوقفا على تعيين واستكشاف المفارقات الزمنية.

– يقتضي هذا الاختلاف في الاتجاهات والرّؤى من المشتغل بالسّرد "أن يختار رواية معالجته وينخرط ضمن هذا التوجّه أو ذاك، بوعي وفهم ومقاصد محدّدة، وإلا كان ضربا من الحذلقة وكان دوره وسط كثرة الاجتهادات السّردية وتنظيراتها المتباينة الأسس والمراسي دور (حاطب ليل)"[25]. ولّما كان الأمر متعلّقا بأشكال سردية من التراث العربي، كان لزاما توجيه النّظر صوب الاتجاه الأمثل: سيميائيات غريماس كون أدواتها الإجرائية تتماشى وطبيعة تلك النصوص.

السيميائيات السردية ومشروعية القراءة:

أتاحت السيميائيات السردية إمكان تقديم قراءة علمية للمحكيات العربية القديمة، عبر ما اقترحته من مفاهيم وآليات، أثبتت فاعليتها في استكشاف البنيان الدلالية للنصوص التي تناولتها بالتحليل، وإذا كانت تلك

النصوص تختلف في البنية التركيبية والثقافية عن النّصوص العربية، فإنها في مظهرها العام تشترك معها في الكثير من الخصائص. إذ أنّ السيميائيات السردية في بدايات عهدها اشتغلت على نصوص من التّراث كالحكايات الخرافية (سوندريون، الأصبع الصغير...)، إذ تشترك الحكايات الخرافية لدى الأمم في خصائص معيّنة نجمعها كونها "تمت في أصولها إلى مرحلة متقدمة من تاريخ علاقة الإنسان الغامضة بالكون، فهي تنطوي على تصوّرات ورؤى ووقائع أسطورية ودينية وتاريخية قديمة اندغمت في بعضها في عصور زمنية متعدّدة واستقامت نوعا سرديا مهمّا بين مجموعة والحكايات التي كانت صدى للعقائد الدينية القديمة"[27]. ومن هذا المنطلق لا يجد بعض النقاد العرب جرحا في الإقرار بأنّ "الموروث الإخباري العربي، لا يتناقض وطبيعة الموروث الإخباري لدى الأمم الأخرى، فشأنه شأنها، إذ هو يزخر بمختلف الحكايات والأخبار في أغراض شتّى"[28]. فكان من الممكن الإقرار بأنّ مقاربة سيميائية على محكيات التّراث السردي العربي ستمكّن من تحصيل النتائج العلمية نفسها المتحصّل عليها في الغرب، كون أنّ الطابع المميّز لهما يكاد يكون واحدا.

يقرّ سعيد يقطين، وهو العارف بأهمية اختيار الأنموذج الغربي الأمثل لقراءة السّرد العربي قديمة وحديثة، بأحقية السيميائيات السردية في قراءة المحكيّ العربي، يبرز ذلك بجلاء من خلال تحوّل تجربته النقدية من سرديات جيرار جينيت إلى سيميائيات غريماس، حيث يعلن أنّ السيميائيين ركّزوا على المدلول (أو المحتوى)، وألغوا الدال من دائرة من دائرة اهتماماتهم، وبدا له أنّ "السيميوطيقيين وهم ينشدون دون على المحتوى يريدون الإمساك بالعنصر الثابت في أيّ عمل حكائي، لأنهم يعنون بشكل خاص بالمعنى أو الدلالة. ولا يمكن بروز هذا العنصر الثابت إلاّ من خلال المحتوى لأنّه أساس الحكي"[29]، ومن أجل الإحاطة بهذا العنصر الثابت كان لابدّ من أن يوجّهوا أنظارهم صوب المحكيات التي لا تطرح إشكالات زمنية، بما مكّنهم مفصلة المعنى عبر إجراء تقطيع المحكيّ إلى مقاطع معيّنة، حيث يحلّل المعنى حسب الحالة والتحوّل، لكن سعيد يقطين يوافق الطّرح اللذي يعتمد مبدأ الإزدواجية، أو المزج بين اتجاهين في قراءة المحكيّ يقرّ أنّ "تحليل الحكي بمعزل عن منهج محدّد لا معنى له، وأنّ الانطلاق يجب أنّ يتمّ من نظرية من السرديات في نطاق نحو النّص من جهة، ومن المتون النصية كموضوعات للتحليل من جهة أخرى"[30]. حيث يمكن مفصلة تصوّره كما تبلور لديه في كتابيه (حال الرّاوي) و(الكلام والخبر) وفق مايلي:

سرديات القصّة:

– تتعلّق سرديات القصّة حسب سعيد يقطين بـــ "المادة الحكائية من زاوية تركيزها على ما يحدّد حكائيتها و تمييزها داخل الأعمال الحكائية المختلفة، إنّ المادة الحكائية تتصل بـــ (الجنس) إذ من خلالها تلتقي كل الأنواع القابلة لأنّ تدخل ضمن (السّرد) أو (الخبر) وتبعا لذلك تؤكّد على غرار كلّ المشتغلين بالسّرد أنّ أي عمل حكائي يتجسّد من خلال المقولات التالية: الأفعال، الفواعل، الزمان والمكان (الفضاء)" [31]. وهي المقولات نفسها التي قاربها على سيرة بني هلال، حيث لم يكلّف نفسه مشقّة الوفاء المنهجي والحرفي للتحليل السيميائي، بل اكتفى بما يمكنه من إثراء فهمه بالنّص من جهة، والتعديلات التي فتئ يقترحها لتكييفها مع واقع النصوص العربية من جهة أخرى.

سرديات الخطاب:

– تتعلّق سرديات الخطاب عنده وفق "الطريقة التي تقدّم بها المادة الحكائية، وعن طريق اختلاف طرائق التقديم، تختلف باختلاف الخطابات وأنواعها، وإذا كانت مقولات القصّة هي: فعل وفاعل في زمان ومكان معيّنين، فإنّ الخطاب يتحدّد بدوره من المقولات نفسها، لكنها تختلف باختلاف وسائط أو ترهينات تقديمها"[32]، وهذا يعني

أنّ الفعل من حيث هو حدث القصّة يغدو في الخطاب سردا، في حين يكون الفاعل الممثّل في القصّة كشخصية يقابله السارد في الخطاب، وإلى جانب أنّ زمن القصة يتغيّر بتغيّر زمن الخطاب.

سرديات النص:

يعرّفها سعيد يقطين بأنها "تهتم على وجه الإجمال بالنص السردي باعتباره بنية مجرّدة أو متحققا من خلال جنس أو نوع محدّد. وهي تهتم به من جهة (نصية) التي تحدّد وحدته وتماسكه وانسجامه في علاقته بالمتلقي في الزمان والمكان، ويسمح لها هذا بالاهتمام بالنص السردي بوضعه في نطاق البنية النصّية الكبرى التي تنتمي إليها، فتنظر فيه من خلال مختلف جوانبه وعلاقاته بغيره من النصوص، واضعة إياه في نطاق مختلف المقولات التي يتمفصل إليها العمل الحكائي، فتعاين الفعل النصي من خلال الإنتاج والتلقّي، وتربط كلا منهما بفاعل (الكاتب – المؤلف) و(القارئ – السامع) وتضعهما معا في زمان وفضاء معيّنين"[33]. حيث تتجاوز السرديات النصية–وفق سعيد يقطين– المستويات اللفظية للخطاب، باقترابها من مستويات غير لفظية، ومن نص أدبي إلى نصوص أدبية، ساعية إلى توسيع نطاقها وانفتاحها على علوم معرفية متعدّدة، بيد أنّ المزج بين أكثر من توجّه أثناء المقاربة والتحليل، من شأنه أن يبعثر الجهود المبذولة، كما يخلّ بالفصل الذي أقامه رواد السرديات الغربية بين اتجاهين مختلفين في قراءة المحكي، رغم أنّ يقطين واع بخطورة ذلك المزج.

لا يلتزم سعيد يقطين بمقترحات سيميائيات غريماس، فإلى جانب قصره التحليل على الفعل والفواعل، والفضاء والزمن، عهد إلى ابتداع طرح جديد يتعلّق بالدّلالة الاصطلاحية لمفهوم السردية، حيث قرن هذه الأخيرة "الحكائية"، وحاول إيجاد مقاربات دقيقة للتميز بينهما حيث يعرّف الحكائية بانها "موضوع السرديات الحكائية أو سرديات القصّة وهي تعني بالبحث في ما يجعل من العمل الحكائي حكائيا، إنها تهتم بشكل خاص بالحكائية كما تتجلّى من خلال الجنس. والسردية موضوع سرديات الخطاب وتهتم بمجمل الخصائص التي يتميّز بها عمل سردي آخر"[33]، تبعا لذلك فإنه يمنح "للحكائية والسردية طابعا مميزا ونصل كلا منهما بمرتبة من مراتب التحليل ونعالج كلا منهما بما يقتضيه من عدة نظرية ملائمة، ونضعه في موقعه الخاص ضمن التصوّر الشامل الذي نأخذ به"[35]، كما يقرّ بأنّ الأعمال السردية تلتقي جميعها في اتصالها من حيث الجنس لكنها تختلف من هي أنواع، والسردية هي التي بواسطتها نميّز نوعا سرديا عن غيره أما السرديات النصيّة فهي أعمّ من سرديات القصةّ وسرديات الخطاب: وموضوعها النصية لأنها تلحق الحكي أو السرد يغيرهما من أجناس الكلام وأنواعه[35].

يبدو التقاطع في البنية المورفولوجية لمصطلحي "سردية" "حكائية" على الرّغم من أنّ يقطين فصل بينهما، فالقول بمصطلح "حكائية" لا يغدو أن يكون اجتهادا فرديا يفتقد إلى مصداقيته، كونه يحتاج إلى إبراز مرجعيته التي استوحى منها، فحكائية القصة، وسردية الخطاب، مفاهيم لا تجد مثيلا لها في المحاضن الأصلية للسرديات الغربية، بشقيها البنيوي والشكليّ، لذلك يبقى هذا التصوّر أحادي الجانب طونه يصدر عن باحث واحد لم يقتنع بتقسيمه، جمعُ المشتغلين بالسرديات، كون أنّ الحكائية والسردية مترادفان من حيث الإحالة على مفهوم بعينه، مختلفان فقط من حيث الاصطلاح، مما يستدعي القرار بأخفيّة السردية في التناول، ومنحها شرعية البقاء كمصطلح ومفهوم له ما يقابله في سيميائيات غريماس **Narrativité**.

أهداف القراءة السيميائية ومستوياتها:

تبني السيميائيات السردية، عبر الأدوات والمفاهيم التي اقترحتها، مقدرتها الإجرائية الواسعة في التعامل مع كافّة الأشكال الخطابية الممكنة كالحكايات المكتوبة والشفوية، وروايات منوّعات الجرائد، والأفلام، والاشرطة المرسومة...إلخ. إنها "تحاول تحديد القوانين التي تبرز جزئيات من هذا العنصر المركزي لحياتنا اليومية أي فعل حكي"[37]، ومن ثمّ فغنها تُخضع تلك القوانين لغرض استكشاف المعنى، بمعزل عن أيّة أغراض أخرى، كفعل التواصل مثلا، (التواصل بين المرسل والمرسل إليه)، فقد سعت إلى أن تفرض وجودها ضمن أفق يطمح إلى أنّ يكون علميا، من خلال إقرارها بمبدأ المحايثة (**Immanente**) حتى يكون عملها أكثر شكلية، لذلك فإنها تسلّم "بانّ كل كلام هو قابل للتمفصل، بمعنى أنه يعاين وحدات مميزة، قادرة على إقامة أنواع من العلاقات المختلفة، سواء على مستوى (النظام) (أنواع الوحدات والقواعد التي يتضمنها الكلام المعرّف) أم على مستوى العملية (تنفيذ ملموس للكلام المعطى تسلس الوحدات، العلاقات بين مقطوعات الوحدات...إلخ)"[38]. إذ تؤكد عبر طموحها في استجلاء لعبة المعنى داخل المحكيّ أنّ مقاربة من هذا القبيل "لا تكون ممكنة إلا من خلال مقاربات متنوعة ومختلفة، أي حسب مستويات مختلفة هي ذاتها تتحدد بمجموع الخطوط الفارقة المشتركة (أو المستخلصة) بين المواضيع

المدروسة"[39]، إذ تنطلق السميائيات السردية من فرضية عامة، مفادها أنّ كلّ نصّ يشكّل في مجمله كلاّ دلاليا، تبنى عناصره وفق الاختلاف القائم بين الوحدات المؤسسة له، الداعية إلى محاصرة المعنى من خلال مستويات تحليل مختلفة، ومتجانسة في الوقت نفسه؛ ففي خطوة أولى نبدو غاية في الأهمية، تقترح السيميائيات السردية تنظيم النص بغية إيضاح انتظامة الأساسي، ومن ثمة استعراض مستويات المقاربة؛ حيث "تتمثل العملية الأولى في مفصلتها طلّ واحدة على حدة، بصورة تسمح بإنجاز قوائم للوحدات التي تكوّنها: يجب إذا تحديد مكوّناتها (حسب الاصطلاح اللساني) من خلال العلاقات التي تقيّمها هذه المكوّنات فيما بينها (دراسة صرفية) [مورفولوجية] سواء المستوى المركبي أو الإبدالي وتحديد قواعد توليفاتها الممكنة (دراسة تركيبية)، وفي مرحلة ثانية، يجتهد التحليل في رصف المستويات المختلفة في مجموعة منسجمة نصادر على اعتبارها ذات طبيعة تراتبية"[40]، حيث اعتادت سيميائيات غريماس أن تسهّل إجراءاتها بتحديد ثلاث مستويات تحليلية مختلفة على النحو الآتي:

- مستوى البنيات السردية.
- مستوى البنيات الخطابية.
- مستوى البنيات الدلالية.

الإحالات

1- محسن جاسم الموسوي: سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط**1**، ص**197**، ص**09.**

2- محسن جاسم الموسوي: سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، ص:**09**

3- سعيد بنكراد: التيارات النقدية الجديدة، ص: **24**

4- سعيد بنكراد: التيارات النقدية الجديدة، ص: **25**

5- A. j Greimas: Maupassant la sémiotique du textes. P13

6- Voir : Ibid. P19.

7- سعيد بنكراد: التيارات النقدية الجديدة، ص: **26**

8- منصوري مصطفي: سرديات جيرار جينات و أثرها في النقد العربي الحديث، ص**237.**

9- ينظر: سعيد يقطين: السرديات كما أتصورها، ضمن مجلة علامات، عدد **25**، مكناس، المغرب، **2006**، ص**37.**

10- ينظر: المرجع نفسه، ص. ص **37، 39.**

11- ينظر: سعيد يقطين: السرديات كما أتصورها، ص **40.**

12- المرجع نفسه، ص **42.**

13- سعيد يقطين: السرديات كما أتصورها، ص **43.**

14- سعيد يقطين، السرديات كما أتصوّرها، ص **44.**

15- سعيد يقطين، تقديم ترجمة كتاب جيرار جينيت لمحمد معتصم، عودة إلى خطاب الحكاية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط**1**، **2000**، ص: **9.**

16- منصوري مصطفى، سرديات جيرار جينيت وأثرها في النقد العربي الحديث، ص **295.**

17- يميز جيرار جينيت في كتابه "خطاب المحكي" بين مظاهر ثلاثة للواقع السردي: القصة وتحيل على المدلول أو المضمون السردي، والمحكي (الحكاية) بمعناها الحصري على الدال أو المنطوق أو الخطاب أو النص السردي فسه، ثم السرد ويدل على الفعل السردي المنتج. ينظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم وآخرين، منشورات الاختلاف الجزائر، ط**03**، **2003**، ص. ص: **38، 39.**

18- أنظر: سرديات جيرار جينيت وأثرها في النقد العربي الحديث، ص. ص: **295، 301.**

19- سعيد يقطين، الرّواية والتراث السردي، من أجل وعي جديد بالتراث، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط**01**، **2006**، ص **08.**

20- سعيد يقطين، الرّواية والتراث السردي، من أجل وعي جديد بالتراث، ص: **10.**

21- سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدّمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط**01**، **1997**، ص:**09.**

22- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط**06**، **1993**، ص: **22.**

23- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص: **12.**

24- أنظر: مفهوم السردية في مدخل الفصل الأوّل من هذا البحث.

25- جيرار جينيت وآخرون، نظرية السرد من وجهة النّظر إلى التبئيرية، ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، المغرب، ط**01**، ص: **97.**

26- سعيد يقطين، الكلام والخبر، ص. ص: **28، 29.**

27- عبد الله إبراهيم، السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط**02**، **2000**، ص: **85، 86.**

28- المرجع نفسه، ص: **25.**

29- سعيد يقطين، قال الرّاوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط**01**، **1997**، ص: **15.**

30- المرجع نفسه، ص: **10.**

31- سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدّمة للسرد العربي، ص: **223.**

32- المرجع نفسه، ص: **224.**

33- المرجع نفسه، ص: **226.**

34- أنظر سعيد يقطين،: قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية ، ص**: 12.**

35- سعيد يقطين، قال الرّاوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، ص: **15.**

36- المرجع نفسه، ص: **16.**

37- المرجع نفسه، ص: **315.**

38- جوزيف كورتيس، مدخل على السيميائية السردية والخطابية، تر: جمال حضري، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر، لبنان، ط**01**، **2007**، ص: **59.**

39- جوزيف كورتيس، مقدمة عامة لدراسة سيميائية المقروء والمرئي، تحليل سيميائي لأقصوصة دي موباسان ولشريط مرسوم لب رابي، تر: نادية بوشفرة، ضمن مجلة معالم، مجلّة فصلية تعني بترجمة مستجدات الفكر العالمي، الجزائر، العدد الثاني، **2010**، ص: **138.**

40- جوزيف غريماس، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ص: **58.**

41- جوزيف كورتيس، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ص: **59.**